الغزالي ورأيه في العقل

obeikandl.com

obeikandl.com

بيان شرف العقل :

العقل منبع العلم، ومطلعه، وأساسه، وقد ظهر العلم من قبل العقل، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة، فالبهيمية رغم قصورها في التمييز تحتشم العقل، حتى أن أعظم البهائم بدناً، وأشدّها ضراوة، وأقواها سطوة، إذا رأى صورة الإنسان احتشمه مهابة لشعوره باستيلائه عليه لما خص به من إدراك الحيل، ولذلك قال صلى اللّه عليه وسلم (**الشيخُ في قومه كالنبي في أمته**)[٦٢] فهذه الزيادة تجربته التي هي ثمرة العقل.

وعندما قصد البعض من المشركين لقتل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فلما وقعت أعينهم عليه اكتحلوا بغرته الكريمة وهابوه، وتراءى لهم ما كان يتلألأ على ديباجة وجهه من نور النبوة، وإن كان ذلك باطناً في نفسه بطون العقل، فشرف العقل، ما يدرك بالضرورة، وإنما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار والآيات في ذكر شرفه وقد سماه اللّه نوراً في قوله تعالى (**اللّه نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة**)[٦٣] وقال عزّ وجل (**أومن كان ميتاً فاحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس**)[٦٤]

وقال صلى اللّه عليه وسلم (**يا أيها الناس اعقلوا من ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه وأعلموا أنه ينجيكم عند**

---

(٦٢) المصدر إحياء علوم الدين / للإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي / المجلد الأول ص٩٩

(٦٣) سورة النور آية ٣٥.

(٦٤) سورة الأنعام آية ١٢٢.

obeikandi.com

ربكم،وأعلموا أن العاقل من أطاع الله، وإن كان دميم المنظر حقير الحظر دنيء المنزلة رث الهيئة، وأن الجاهل من عصى الله تعالى، وإن كان جميل المنظر عظيم الحظر شريف المنزلة حسن الهيئة فصيحاً نطوقاً، فالقردة، والخنازير أعقل عند الله تعالى ممن عصاه، ولا تغتر بتعظيم أهل الدنيا إياهم، فإنهم من الخاسرين)(٦٥)

وقال صلى الله عليه وسلم (أول ما خلق الله العقل، فقال له: اقبل فاقبل ثم قال له أدبر، فادبر ثم قال الله عزّ وجل،وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك، بك آخذ،وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب)(٦٦)

وعن البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال (جَدَّ الملائكة واجتهدوا في طاعة الله سبحانه وتعالى بالعقل، وجَدَّ المؤمنون من بني آدم على قدر عقولهم، فاعملهم بطاعة الله عزّ وجل أوفرهم عقلاً)(٦٧)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت (قلت يا رسول الله بم يتفاضل الناس في الدنيا؟ قال: بالعقل، قلت: وفي الآخرة قال: بالعقل،قلت: أليس إنما يجزون باعمالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل؟ فبقدر ما أعطوا العقل كانت أعمالهم وبقدر ما عملوا يجزون)(٦٨)

---

(٦٥) أخرجه داوود في كتاب العقل من حديث أبي هريرة.

(٦٦) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي إمامه وأبو نعيم من حديث عائشة بإسناد ين ضعيفين.

(٦٧) حديث أبو البراء بن عازب. رواه البغوي في معجم الصحابة

(٦٨) أخرجه المجبر والترمذي الحكيم في النوادر. نحوه.

بيان حقيقة العقل وأقسامه: اعلم أن الناس اختلفوا في حد العقل، وحقيقته، وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم، والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معاني.

فالأول:[٦٩] الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وإنها غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية كأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء، ولم ينصف من أنكر هذا ورد إلى مجرد العلوم الضرورية، فإن الغافل عن العلوم، والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم، وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية، فكذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية، ولو جاز أن يسوى الإنسان بها، والحمار في الغريزة، والإدراكات الحسية فيقال لا فرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق في الإنسان علوماً وليس يخلقها في الحمار، والجماد في الحياة، ويقال لا فرق إلا أن الله عز وجل يخلق الحمار، ويخلق له حركات بحكم العادة، فإنه لو قدر الحمار جماداً ميتاً لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد. وكما وجب أن يقال لم يكن مفارقته للجماد في الحركات إلا بغريزة اختصت به يعبر عنها بالعقل، وهي كالمرآة التي تفارق غيرها من الأجسام من

(٦٩) إحياء علوم الدين / الغزالي / المجلد الأول ص١٠١ دار الفكر. دمشق.

obeikandi.com

حكاية الصور، والألوان بصفة اختصت بها، وهي الصقالة، وكذلك العين تفارق الجبهة في صفات وهيئات بها استعدت للرؤية، فنسبة هذه الغريزة إلى العلوم كنسبة العين إلى الرؤية، ونسبة القرآن، والشرع إلى هذه الغريزة في سياقها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس إلى البصر، فهكذا ينبغي أن تفهم هذه الغريزة.

الثاني:(٧٠) هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجوار الجائزات واستحالة المستحيلات، كالعلم بأن الإثنين أكثر من الواحد، وإن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد، وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال: في حد العقل: إنه من الضروري لبعض العلوم كالعلم بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، وهو أيضاً صحيح في نفسه لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلاً ظاهراً، وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال لا موجود إلا هذه العلوم.

الثالث:(٧١) علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإن من حنكته التجارب، وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة، فيقال إنه غبي غمر جاهل فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً.

الرابع:(٧٢) أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة، ويقهرها، فإذا حصلت هذه

---

(٧٠) المصدر السابق ـ ص١٠٢

(٧١) إحياء علوم الدين. المجلد الأول ص١٠٢.

(٧٢) إحياء علوم الدين. المجلد الأول ص١٠٢.

القوة سمي صاحبها عاقلاً من حيث إن إقدامه، وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواص الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان، فالأول: هو الأس، والسنخ، والمنبع، والثاني: هو الفرع الأقرب إليه، والثالث فرع الأول والثاني إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب، والرابع: هو الثمرة الأخيرة وهي الغاية القوى فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب.

والأول: هو المراد بقوله صلى اللّه عليه وسلم (**ما خلق الله عز وجل خلقاً أكرم عليه من العقل**)

والأخير: هو المراد بقوله صلى اللّه عليه وسلم (**إذا تقرب الناس بابواب البر والأعمال الصالحة فتقرب أنت بعقلك**)

ولما كان الإيمان مركزاً في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين: إلى من أعرض فنسي وهم الكفار، والجأ من أجال خاطره، فتذكر فكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها، ولذلك قال عز وجل (**لعلهم يتذكرون**)[٧٣] (**وما يذكّر إلاّ أولوا الألباب**)[٧٤] (**واذكروا نعمة الله عليكم، وميثاقه الذي واثقكم به**)[٧٥] (**ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مذكّر**)[٧٦]

---

(٧٣) سورة البقرة ـ آية ـ٢٢١ ـ القصص : آية ٤٣ ـ ٤٦

(٧٤) آل عمران : آية ٧

(٧٥) سورة المائدة ـ آية ٧.

(٧٦) سورة القمر ـ آية ٧٢.

وتسمية هذا النمط تذكراً ليس ببعيد فكأن التذكر صورتان، أحدهما أن يذكر بصورة كانت حاضرة الوجود في قلبه لكن غابت بعد الوجود. والآخر أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة. وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة ثقيلة على من يستدرجه السماع، والتقليد دون الكشف، والعيان، ولذلك تراه يتخبط في مثل هذه الآيات ويتعسف، في تأويل التذكر بإقرار النفوس أنواعاً من التعسفات، ويتخايل إليه في الأخبار، وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر إليها بعين الاستحقار، ويعتقد فيها التهافت، ومثاله مثال الأعمى الذي يدخل داراً فيعثر فيها بالأواني المصفوفة بالدار، فيقول ما لهذه الأواني لا ترفع من الطريق، وترد إلى مواضعها، فيقال له: إنها في مواضعها وإنما الخلل في بصرك فكذلك خلل البصيرة يجري مجراه، والنفس كالفارس، والبدن كالفرس، وعمي الفارس أضر من عمي الفرس، ولمشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر:

قال الله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى)[٧٧] وكذلك قال تعالى (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض)[٧٨] .

بيان تفاوت النفوس في العقل[٧٩] :

قد اختلف الناس في تفاوت العقل ولا معنى للاشتغال بنقل كلام قلَّ تحصيله، بل الأولى، والأهم المبادرة إلى التصريح بالحق، والحق

(٧٧) سورة النجم ـ آية ١١.

(٧٨) سورة الأنعام ـ آية ٧٥.

(٧٩) إحياء علوم الدين ـ الغزالي ـ المجلد الأول ـ ص١٠٤ . دار الفكر . دمشق.

الصريح فيه، أن يقال إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثاني، وهو العلم الضروري بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، فإن من عرف أن الإثنين أكثر من الواحد عرف أيضاً استحالة كون الجسم في مكانين، وكون الشيء الواحد قديماً حادثاً، وكذا النظائر، وكل ما يدركه إدراكاً محققاً من غير شك، وأما الأقسام الثلاثة، فالتفاوت يتطرق إليها، أما القسم الرابع، وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات، فلا يخفى تفاوت الناس فيه بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة إذ تجد العاقل ترك بعض الشهوات دون بعض، ولكن غير مقصور عليه، فالشاب قد يعجز عن ترك الزنا، وإذا كبر، وتم عقله قدر عليه، وشهوة الرياء والرئاسة تزداد قوة بالكبر لا ضعفاً، وقد يكون سببه التفاوت في العلم المعرف لغائلة تلك الشهوة، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة، وقدم من يساويه في العقل على ذلك إذا لم يكن طبيباً، وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة، ولكن إذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه اشد، فيكون الخوف جنداً للعقل، وعدة له في قمع الشهوات، وكسرها، وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصي من الجاهل لقوة علمه بضرر المعاصي، وأعني به العالم الحقيقي دون أرباب الطيالسة وأصحاب الهذيان، فإن كان التفاوت في الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل، وإن كان من حاجة العلم فد سميناه ضرباً من العلم عقلاً أيضاً، فإنه يقوي الغريزة للعقل، فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه ويكون بمجرد التفاوت في غريزة العقل، فإنها إذا قويت كان قمعها الشهوة لا محالة أشد.

أما القسم الثالث[80] وهو علوم التجارب، فتفاوت الناس فيها لا ينكر، فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك، ويكون سببه إما تفاوت في الغريزة، وإما تفاوت في الممارسة، فأما الأول، وهو الأصل أعني الغريزة، فالتفاوت فيه لا سبيل إلى جحده، فإنه مثل نور يشرق على النفس، ويطلع صبحه، ومبادي إشراقه عند سن التمييز، ثم لا يزال ينمو، ويزداد نمواً خفي التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة، ومثاله نور الصبح فإن أوائله تخفي خفاء يشق إدراكه ثم يتدرج إلى الزيادة إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس. وتفاوت نور البصيرة والفرق مدرك بين الأعمش، وبين حاد البصر، بل سنة الله عز وجل جارية في جميع خلقه بالتدريج في الإيجاد حتى أن غريزة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ دفعة، وبغتة، بل تظهر شيئاً فشيئاً على التدريج، وكذلك جميع القوى والصفات، ومن أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة، فكأنه منخلع عن ربقة العقل.

إن اختلاف النفوس في غريزة العقل يدل على تفاوت العقل من جهة النقل، وما روي أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه سأل النبي (صلى الله عليه وسلم) في حديث طويل في آخره وصف العرش وعظمه، وإن الملائكة قالت (**يا ربنا هل خلقت شيئاً أعظم من العرش؟ قال: نعم العقل، قالوا: ما بلغ من قدره؟ قال: هيهات لا يحاط بعلمه هل لكم علم بعدد الرمل ؟ قالوا: لا، قال عز وجل: فإني خلقت العقل أضعافاً شتى كعدد الرمل، فمن الناس من أعطي حبة، ومنهم من أعطي حبتين، ومنهم من أعطي**

---

(٨٠) إحياء علوم الدين ـ الغزالي ـ المجلد الأول ـ ص:١٠٤.

الثلاث، والأربع، ومنهم من أعطي فرقاً، ومنهم من أعطي وسقاً، ومنهم من أعطي أكثر من ذلك)[٨١]

فإن قلت: فما بال أقوام المتصوفة يذمون العقل، والمعقول، فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل المعقول إلى المجادلة، والمناظرة بالمناقضات، والالتزامات، وهو صنعة الكلام، فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية، إذ كان لا ينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلوب فذموا العقل، والمعقول، وهو المسمى به عندهم، فأما نور البصيرة التي قام بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله، فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله عليه، وإن ذم فما الذي بعده يحمد؟ فإن كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع؟ علم بالعقل المذموم الذي لا يوثق به، فيكون الشرع أيضاً مذموماً، ولا يلتفت إلى من يقول إنه مدرك بعين اليقين ونور

الإيمان، وهي الصفة الباطنية التي يتميز بها الآدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور، وإن هذه التخبطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ، فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس في الألفاظ .

---

(٨١) أخرجه ابن المجبر من حديث ابن أنس بتمامه والترمذي الحكيم في النوادر مختصراً.